من مذكرات عمر بن أبي ربيعة

صـــــديق إبليس...

للأستاذ محمود محمد شاكر

(بقية ما نشر في العدد الماضي)

« وذهبت صهباء وبقيت أترقبها ثلاثة أيام ولياليها وهي لا تجيء ، حتى إذا كانت ليلةُ خرجتَ أنت إلى الطائف آخر خَرْجة ، جاءتني صهباء في جِنْح العَتَمَة ودخلت هي وظلماء فقالت : لقد أطاع مولاي في مرضاتك ، فإن أذنتِ جئتُ به الساعة . قلت لها : لبِّثي حتى يأوي جوان . فلما كان بعد هدأة الليل وفقدنا الصوت ، ذهبت صهباء ساعة ثم جاءت . ودَخل عليَّ رَجُل أسمر طوالٌ نحيل البدن مَعْروق الوَجه أبيض اللحية أشعثُ أغبر ، كأن عينيه جمرتان تَقِدان في وقْبَين غائرين كأنهما كهفان في حِضْن جبل ونظر في عيني فوالله لتمنيتُ أن الأرض ساخَتْ بي ولم أنظر في عينيه ، فما هو إلا أن سلَّم حتى سمعت نغمةَ صوتٍ شجيٍّ كحنين الوالهة ، فوالله لتمنيت أن يتكلم ما بقيتُ . ولم أدر ما أقول ودَهِشْت وهلك صوتي ، فنظرت فإذا هو يبتسم إليَّ ثم يقول : « يا أم جوان ! لقد سميت إلى بيتك وما سميت من قبل إلى بيت إلا إلى هذه البَنِيَّة « يعني الكعبة » . وقد جاءتني فتاتي صهباء تحدثني عما كان منها إليك ، وقبيحٌ بامرىء أفزع قلباً ساكناً أن يدعه أو يطمئن ، ولو كنتُ أعلم أنها مفتوقة اللسان ، ماحدَّثتها بشيء أبداً » . قالت كأم : فكأن الله جعل لي قوة سيلٍ جارف فقلت له : كذبت يا رجل وكذبت بنت الأصفر ، ووالله لئن لم تأتني ببرهان ما تقول ، لتركت شيبتك هذه أباديدَ في أكفّ صبيان مكة . ووالله لو صدقت لأسترنك ولأكفينَّك ما عشتُ . فقال : « جزاك الله خيراً يا أم جوان ! أما إذ كذبتني فآبى أن تذهبي فتستخرجي من جوف حقيبة عمر الحمراء بين جلدها ومفرشها كتابَ عبدالله بن هلال الفاسق بخط يده ، قد جعله عيمة لزوجك أن لا يراه أحدٌ إذا خرج إلى مأوى الفتانين بالطائف ، ومعه منديلُ ابن هلال الأزرق ذو الوشي ، يمسح به وجهه قبل أن يرحل » . فما كذَّبتُ أن طِرْتُ إلى مازعم ، فوالله لقد صَدَق وبَرّ

« قال عمر » ، قلت : ما تقولين ؟ قالت : صه يا عمر فوالله لقد صدق وبرّ ، وقلت له : أيها الشيخ ! أفأنت تعلَمُ أين نجد هاتين الخبيثتين ؟ قال : لا . قلت : فما تزعمُ فتاتكَ من أن لاشيء يفعله الخبيث ابن هلالٍ إلا كان عندك خبره ؟ قال : صدقتْ . قلت : فكيف لا نعلم ؟ قال : إنه أخبث وألأم وأضلّ وأدهى وأقرب إلى إبليس وبنته بَيْذخ ذات العرش من أن أطيق معرفة ما انقطع بيني وبينه . قلت : وما بيذخ ذات العرش ؟ قال : إنها ابنة إبليس التي اتخذت عرشها على الماء ، حولها سودٌ غلاظ يشبهون الزُّطّ ، حفاة مشققو الأعقاب ، ولا يصل إليها إلا من قدَّم لها القرابين من حيوان ناطق وغير ناطق ، وترك لها من الصلاة والصوم ، وقدم إليها من الذهب والفضة واللآلىء حتى ترضى ، فإذا فعل ما تريد وصل إليها فسجد تحت عرشها ، فتُخدِمه من يريد وتقضي حوائجه . قلت : وما علمُك بهذا أيها الشيخ ؟ قال : ذاك شيء قد كان والله هو التواب الرحيم . قلتُ : قد كان ! قال : نعم أما اليوم فلا ، وما يأتيني بأخبار اللعين الزنديق ابن هلال إلا صاحبٌ

مصبوغة صبغة مادية على ما كانت تعرض بها في القرن التاسع عشر في أوروبا ، ولم تتبعها بالآراء التي تنازعها السلطان ، ولا بالمكتشفات العلمية التي تحد من غلوائها !

نعم قد نشرت بحوث عن العالم الروحي في هذه البلاد ولكنها تولت بردود دلت على أن أصحابها لا يدرون عنها شيئاً ، وكان أهون ما قالوه ضدها إنها لا تزال رهن البحث ، ولم يبت في أمرها بعد ، ونحن لا ندري متى تنضج هذه البحوث بعد ما مر عليها قرن برمته ، وصدرت في إثبات صحتها الوف من المؤلفات ، وأعلن اقتناعه بها الوف من العلماء والفلاسفة؟ وهل بعد دخولها أشهر الجامعات يراد دليل على أن البحث فيها قد استوفى حقه استيفاء يؤهلها لأن تأخذ مكانتها الرفيعة بين سائر المعارف المحققة، وتؤدي للمجتمع المهام الأدبية التي لا يمكن أن يقوم بها غيرها ؟

محمد فريد وجدي

من الجن قد آمن بإيماني ، ولكنه محجوبٌ عن الأسرار . قلت : أفلا تكرمني أيها الشيخ فتسأل صاحبك أن يحتال ليعرفَ ؟ قال : لا أدري ! ولكن ائتني بطست أناطِق صاحبي .

« فأتيته بطستٍ فكبَّه ، وأخرج من كُمّه غلالةً سوداء فنشرَها عليه ، وأمرَ بالفتائل فأطفئت ، وطلب جمرات في طبقٍ . فلما تمّ ذلك أخرج عُوداً من المندلِ فطيَّر دُخانَه ، وجلس واختبَى ، وإن عينيه لتبرقان في الظلماء ، وجعل يتمتم ويدندن ويهمهم حتى كدتُ أنشقُّ ، ثم قال : يا زوبعة ! فإذا صوتٌ يأتي كأنما يخرجُ من جوف بئرٍ شَطونٍ يقول : لبَّيك أبا الحسن ! قال : أتدري أين أنا ؟ قال : بلى دَرَيْتُ ! قال : إنه قد حضرني من الأمر ما تعلم ، أفأنت بمُدْركي بمأوى الحبيبتين قينتيّ ابن هلالٍ ؟ قال : لقد علمتَ مالي ببيذخَ طاقة بعد إيماني بالله ورسوله ! قال : أفلا تحتال ؟ قال : تبّاً لك من شيخ سوء ! أترومني أن أرتدَّ إلى الكفر بعد الإيمان ؟ قال : مهلاً زوبعة ! أمالك مِنْ صديقٍ ترفقُ به حتى تستلَّ منه السرّ ؟ قال زوبعة : هذا فراقٌ بيني وبينك أيها الخبيث . ووالله ما تركتَ السِّحْرَ إلاّ وفي قلبك رَجْمَةٌ إليه . خسئتَ أيها الفاجر ! » وإذا الطستُ يتحرّك فينقلبُ فأرى كمثل شرارة النار تنطلقُ مصعِّدة ثم تخْمَدُ . قال الشيخ : يا أمّ جوان ، لقد رأيت ، ومالي من حيلةٍ . قلت : احتَلْ لي وقاكَ الله السوء ، ولا والله لا تخرج من هذه الدار حتى تعطيني المواثيق بأن تفعلَ ما أريد . قال : يا أمّ جُوَان ، وكيف بعذاب الله ؟

« قالت كاتم : فوالله ما إن سمعتُ مقالته حتى خانتني قدماي فوقعت أبكي وبرفصُ دَمْعي كالذَّرْع الجَرْر ، ورأيت الدُّنيا قد أطبقت عليّ ، وما هو إلاّ أن أنشجَ بالبكاء . فدنا الشيخُ وأسرّ إليّ أنْ أبشري أمّ جُوان ، فلا والله ما أدعُك أبداً حتى يطمئن قلبك ، واصبري غداً تأتيك الصهباء . وما أفقتُ حتى رأيتُني كالمأخوذة وظمياء تنضَحُ وجهي بالماء . وبقيت الليل كلّه أطويه ساعةً بعد ساعةٍ حتى أصبَحَ الباسُ ، وقلبي يرجُفُ ، ودمعي ينهلُ ، وكأنّ في سَمْعي دويَّ النَّحْل ، حتى إذا قام قائم الظهيرة جاءت صهباء فقالت : يقول لك مولاي إنه يبني رفيرفين من الديباج ، وعشرة أثواب من الإبريسَم ، وبُرْدين كذّابين من الخزّ ، وخمسين لؤلؤة لم تثقب . فما كذّبتُ أن أعطيتها ما طلبتْ . وغابت يومين ثم جاءتني مع العشي وقالت : يقول لك مولاي : لو أطاقَ أن لا يكلّفك لفَعَل ، ولكن الأمرَ قد استعصى عليه بعد توْبته ، وإن بَيْذَخ (بنت إبليس) لتقتضاه كِفاءَ ما عَصَاها في طاعة الله . وإنها قد طلبت أن يذبحَ لها من الذبائحَ ما يسيلُ على جنباتِ الغَوْرِ (مسكن الجن) حتى ترضَى . قلت : كم يريد مولاك ؟ قالت : بين المئتين والثلاثمئة . فوالله ما كذّبتُ أن أعطيتُها . فما غابت إلاّ يوماً أو بعضه حتى جاءت تطلبُ المنديلَ الذي أعصبُ به رأسي ، فما كذّبتُ أن أعطيتُها . ثم جاءتني من الغَدِ عند الأصيل ، فقالت : يقول لك مولاي لا تصلي العشاء الآخرة الليلةَ حتى يُؤذِنَك . فوالله لقد كبر عليّ ولكني أطعتُه ، وإذا أنا أسمعُ في سُدْفَة الفجر صوتاً كالتحدّر ما بين جبلين يقول : قُومي إلى صلاتك . فقمتُ فصلّيتُ وما كدتُ حتى أذّن الفجر . فلما كانَ بعد أيامٍ جاءتني صهباء تقول : أبشري ! سيأتي مولاي الليلة . قلت : مرحَباً به من ضيفٍ . فلما دَخَل الليل وسكن الناس ، جاء الشيخ ليعاوده فسلّم وسكتَ ثم قال : انظري إليّ يا أم جوان . فنظرت في عينين كالنار المشعلة في الليلة الدّامسة ، وجعل يُمرر يده بين عيني وعينيه ، فكلما احتجبتا عني أظلمت الدنيا في عيني ، وإذا وقعت عيني في عينه أضاء ما بيني وبينه كالسراج التوهج ، فوالله ما شعرت إلا وظمياء تنضحني بالماء حتى أفيق . قلت : يا ظمياء ! أين الشيخ ؟ قالت : لقد أذنتِ له أن ينصرف بعد أن أعطيته من المال ما طَلَب . قلت : تبّاً لي أين كان عَقْلي ؟ وكم أعطيته ؟ قالت : ألف دينار ذَهَباً ، وواعدَك أن يأتيك بعد سبعة أيام بمأوى الحبيبتين .

« قال كاتم : وهذا اليوم ميعاده ، ووالله لئن صدقتني يا عُمَر لقد حفظتك ما عشتُ في قلبي » .

« قال عمر بن ربيعة » : « فوالله ما كنت أدري ما أقول ، إلا أني قلت لها : أصدقك ؟ لقد ضللت إذن أيتها الحمقاء » . قالت : « أنا حمقاء أيها الفاجر الفاسق ! ثم قامت إلى صوانها فاستخرجت منه شيئاً ونشرته لعيني ، فإذا سَرَقةٌ من حرير أبيض عليها صورتان ، فما تأملتها إلا كانتا والله قينتي ابن

هلال حيث رأيتهما وسمعتهما بالكوفة ، ولقد كانتا فى السرقة أجل وأفتن وأحبُّ إلىَّ مما كانتا . قلت : إنهما والله يا كائم قينتا ابن هلال ! قالت : وصدق الشيخ أيها الفاجر ! أتدع حرائر بنى مخزوم إلى الخبيثات الدنيئات من بغايا الكوفة ، تخالف إليهن تحت الليل والسحر والكفر وعبث الشيطان بك وبعقلك .

[قال عمر] : وإذا جوانٌ بالباب ينظر إلى السورتين ، ثم يتقدم ويقول : ما بك يا أمَّاه ! فتقول : هذا الخبيث الفاجر يدع الحرائر من بنى مخزوم ملطَّمات ويختلف إلى زواني الكوفة يقتادهن إليه الخبيث ابن هلال بالسحر والطلاسم . وهذا منديله يمسح به غبارَ وجهه لا يراه الناس ساعياً إلى فجوره .

[قال عمر] : وجعلت تقص على جوان قصة ما كان ، وهى تنظر إلى كالبؤة المُجرية ريعت أشبالها ، فما كادت تفرغ حتى جاءت ظمياء مُعجلةً تقول : مولاتى ، صهباء بالباب . قالت كائم : إيذنى لها . فما كدت أراها حتى فزعت قائما إليها وأخذتُها بغدائرها : « وإنك لأنتِ أنتِ أيتها الشيطانة ؟ » فانقضَّت علىَّ كائم تذودنى عنها وتقول : دعها أيها الفاجر ! قلت : إنها فِتَن جارية الخبيث الفاجر عبد الله بن هلال ، ولطالما خدمتنى بالكوفة ! أليس كذلك يافتن ؟ قالت : ارحمنى ياسيدى فما أنا إلا جارية بائسة مسكينة يركبنى هذا الشيطان بخبثه وخبائثه . قلت : وأين ابن هلال صديق إبليس وصاحبه قالت : ما تدركه يا مولاى ! فقد ارتحل الليلة وتركنى أتبعه والثَّقَل . قلت : وماجئت تبغين ؟ قالت : أرسلنى أطلب بعض المال من مولاتى .

قالت كائم : دعها يا عمر الآن ، لقد ضللتُ إذن وبئس ما فعلتُ ، ووالله لقد خدعنى الشيطان ابن هلال . أين كان عقلى ! فقال جوان : والله يا أمَّه ! لقد كان فجور أبى بامرأتين خبيثتين من بغايا الكوفة ، أحبَّ إلىَّ من شركك بالله وكفرك ! قومى يرحمك الله فتوبى إلى الله مما كان من ضلالك وكفرك ... »

محمود محمد شاكر

لجنة النشر للجامعيين

تقدم

محمد رسول الله

تأليف

مولاى محمد على

ترجمة

الأستاذ مصطفى فهمى

يطلب من

مكتبة مصر بشارع الفجالة بمصر

الثمن ١٠ قرشا ويطلب فى فلسطين من مكتبة الظاهر اخوان ، وفى لبنان من المكتبة الأهلية وفى العراق من مكتبة المعارف